مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- جامعة غليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار 1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 08/ العدد: 02 مارس (2022) - ص 32- 44

إسهامات الشّيخ البشير الإبراهيمي في النهوض باللّغة العربية إبّان الاحتلال الفرنسي (مقالات البصائر أنموذجا)

Eshaikh Elbashir Elibrahimi's contributions to the Arabic language renaissance throughout the French colonization period (Elbasair articles as a sample)

مرزوق بوبكر [1] لوالي خالد بوعبد الله [2]
merzougboubakeur@yahoo.fr loualikhaled14@gmail.com
جامعة عمار ثليجي- الأغواط- / الجزائر

تاريخ الاستلام: 2021/11/06 تاريخ القبول: 2022/02/05 تاريخ النشر: 2022/03/31

ملخص البحث:

يَسْعَى هَذَا البَحْثُ إِلَى الكَشْفِ عَنْ إِسْهَامَاتِ عَلَمٍ مِنْ أَعْلَامِ جَمْعِيَةِ العُلَمَاءِ المُسْلِمِينَ الجَزَائِرِيِّينَ فِي الدِّفَاعِ عَنِ اللُّغَةِ العَرَبِيَةِ، باعْتِبَارِهِ رَائِدًا مِنْ رُوَّادِ الإِصْلَاحِ الدِّينِي واللُّغَوِي، خَاصَّةً فِي فَتْرَةِ الاسْتِدْمَارِ الفِرَنْسِي، الذِي حَاوَلَ طَمْسَ الهَوِيَةِ الإِسْلَامِيَةِ العَرَبِيَةِ .فَقَدْ بَادَرَ الشَّيْخُ الإِبْرَاهِيمِي مَعَ إِخْوَانِهِ إِلَى إِحْيَاءِ مَا مَاتَ مِنَ العَقِيدَةِ الإِسْلَامِيَةِ فِي النُّفُوسِ وَتَقْوِيمِ مَا اعْوَجَّ مِنَ الأَلْسِنَةِ، بالتَّدْرِيسِ فِي فُصُولِ الجَمْعِيَةِ مَرَّةً وَ كِتَابَةِ المَقَالَاتِ المحَفِّزَةِ فِي قَالَبٍ مِنَ اللُّغَةِ الرَّاقِيَةِ والأُسْلُوبِ الأَدَبِي البَدِيعِ مَرَّةً أُخْرَى .

الكلمات المفتاحية: جَمْعِيَةُ العُلَمَاءِ،رُوَّادُ الإِصْلَاحِ، الهَوِيَةُ الإِسْلَامِيَةُ العَرَبِيَةُ، الشَّيْخُ الإِبْرَاهِيمِي، الاسْتِدْمَارُ الفَرَنْسِي.

ABSTRACT:

This research looks for revealing the contributions of one of the Algerian Islamic Scientists Association outstanding figures in defending Arabic language considering among the pioneers in religious and linguistic reformation, especially throughout the French colonization period, in which France tried removing the Arab Islamic identity.Eshaikh Elbashir Elibrahimi, along with his brothers, has initiated reviving the Islamic belief and redressing the tongs. He taught in the Association, and wrote motivational articles with a high language and a creative literary style.

Key words: the Scientists Association, reformation pioneers, the Islamic Arab identity, Eshaikh Elibrahimi, the French colonization

[2] المؤلف المرسل : مرزوق بوبكر.

1. مقدمة:

لقد عمد المستدمر الفرنسي عند احتلاله للجزائر إلى تجفيف منابع الهوية الجزائرية بما فيها الإسلام والعروبة، مستعينا بخريطة طريق تعمل على: تحريف التاريخ، وتجهيل الشّعب عن لّغته -العربية-، وإفراغ الدّين من مضمونه الرّوحي والحضاري، لتسهُل عليه السّيطرة على البلاد والعباد، إلاّ أنّ هذه المخططات اصطدمت بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي وقفت لها كحائط صدّ بمدارسها وبرامجها وقوّة رجالاتِها، الذين بذلوا الغالِي والنّفيس من أجل الجزائر، والذين من أبرزهم البشير الإبراهيمي.

* فمن هو الشّيخ البشير الإبراهيمي؟ وما هي إسهاماته في الدّفاع عن لغة القرآن إبّان الاحتلال الفرنسي ؟ و إلى أي مدى يمكن اعتبار مقالاته في عيون البصائر دليلا على أدبيته ولغة الراقية ؟

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ هناك دراسات كثيرة تناولت الشّيخ الإبراهيمي وجهوده في الحفاظ على اللّغة العربية: فكان منها المطول(الأطروحات) والمقتضب (المقالات)، حيث يعود لها الفضل الكبير في بلورة أفكارنا نحو إعداد هذا البحث، ومكن حصرها في الدراسات التالية: (بشير فايد: قضايا العرب والمسلمين في آثار الشيخ الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان) -دكتوراه-،(علي حميداتو: دور البشير الإبراهيمي في الدفاع عن اللّغة العربية في الجزائر من خلال مؤلفاته)- مقال- (بن بوزيان عبد الرحمان: جهود الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في إحياء تدريس اللغة العربية بتلمسان1932-1947م)- مقال-.

إلا أنّ الذي نصبوا إليه من الاضافة في بحثنا هذا هو التركيز على جهود الشيخ في الحفاظ على العربية وقت الاحتلال الفرنسي ،من خلال مقالاته في جريدة البصائر من جهة وخطبه المفوهة التي ألقاها على مسامع العرب في مجمع اللّغة العربية بالقاهرة من جهة أخرى .

2. التّعريف بالشّيخ البشير الإبراهيمي :

هو محمّد بشير بن محمّد السّعدي بْن عمر بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي،[1] المعروف باسم البشير الإبراهيمي، فقيه وأديب جزائري، أحد مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من مواليد 14 يونيو 1889م، في رأس الوادي التابعة لولاية برج بوعريريج، تعلّم على يد والده وعمّه، حتى أظهر براعة وقدرة تعليمية كبيرة تجلّت في قوّة حافظته، حتى إنّه حفظ القرآن الكريم والعديد من عيون الشّعر العربي وهو ابن تسع سنين، ثمّ أتقن الفقه، وعلوم العربية من (نحو وصرف وبلاغة)، وَبمرور الأيام أصبح عالما تتزاحم بين يديه الرّكب.

وبعد وفاة عمّه، ناداه والده للالتحاق به إلى المدينة النّبوية، فلبى نداه، وأقام جوار الرّوضة الشّريفة خمس سنين، طور خلالها تعليمه؛ بأن نهل من علماء هذه المدينة الفاضلة، إلى حين انتقاله إلى دمشق في سنة 1912م، فيشتغل بالتّدريس في "المدرسة السّلطانية"، حتى تكوّنت لديه خبرة تعليمية عاد بها إلى الجزائر، ليساهم في تأسيس جمعية العلماء ويعمل ضمن كوادرها.

لقد آمن الشّيخ البشير بالتّعليم كطريق لإصلاح ما اعوّج من الشّعب الجزائري، مع محاولة إرجاعه إلى سابق دينه ولسانه، اللّذين سعى العدوّ الفِرنسِي إلى طمسهما بكلّ ما أوتي من قوة، وهو ديدن كلّ مستدمر في البلاد العربية، على حدّ تعبير الشّيخ الكواكبي:« -المستدمر- لا دين له غير الكسب، فما تظاهره مع بعضنا بالإخاء الدّيني إلّا مخادعةً وكذبًا. هؤلاء الفرنسيون يطاردون أهل الدّين ويعلمون على أنّهم يتناسونه، بناء عليه لا تكون دعواهم في الشّرق إلّا كما يغرّد الصّياد وراء الأشباك »[2]. لذلك وقفوا كحجر عثرة في طريق تقدم الجزائر وتحقيقها لسيادتها، فعملوا على تجهيل شعبِها الأبي، بمحاربة الجمعية ورجالاتها، وطال ذلك الزّوايا والمدارس القرآنية إلى أن أغلق أغلبها.

إلاّ أنّ الشّيخ الإبراهيمي قد شكّل مع إخوانه حصنا حصينا على الجزائر، وهوية أهلها؛ بإنشاء المدارس والمساجد، وتشجيع الشّيوخ - رغم المضايقات- على إقامة الخطب والدّروس التّعليمية، التي تستهدف جميع شرائح المجتمع (الصّغار والكبار، والرّجال و النّساء)؛ لأنّ التّعليم عند الإبراهيمي نوع من الجِهَادِ والثّورة، التي لسانها العلم والقلم، والعدوّ الاستدماري يرى هذا العلم عدوه الألد.[3]

كما حمل الشّيخ الإبراهيمي لواء الدّفاع عن الجمعية وأخواتها من المدارس بالكتابة في الصحف عن طريق المقالات الإصلاحية والتّوجيهية والأدبية التي نشرت في جريدة الشِّهاب ثّم البصائر، وقد جمعها نجله (أحمد طالب الإبراهيمي) في كتاب سمي "عيون البصائر"، و"آثار الشّيخ الإبراهيمي". ولمّا سئل الشّيخ البشير عن قلّة تأليفه للكتب كان يقول: « لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا، ولكني أتسلى بأنّني ألّفت للشّعب رجالا، وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده، وصحّحت له دينه ولغته؛ فأصبح مسلما عربيا ، وصحّحت له موازين إدراكه؛ فأصبح إنسانا أبيّا، وحسبي هذا مقربا من رضا الربّ والشّعب »[4].

وعلى الرّغم من ذلك، إلاّ أنّه - من المؤسف - أن نفقد العديد من مؤلفات الشّيخ الإبراهيمي في مداهمات الجيش الفرنسي لبيته، وبيوت تلامذته إبان الثّورة التّحريرية، كما يقرّ ولده الأستاذ أحمد الإبراهيمي: «ولئن كانت هذه الآثار المطبوعة ضئيلة في حجمها - بالنّسبة إلى حياة الشّيخ الحافلة -، فإنّ كثيرا ضاع، وكثيرا ممّا ألقاه من دروس وخطب ومحاضرات لم يسجل

لأنّه كان يلقيه ارتجالا، ولم تتسن كتابته إلاّ أقل القليل منه، وكانت له مؤلفات وكتابات مخطوطة حول العديد من المواضيع في الدّين واللّغة والأدب والاجتماع ضاعت إبان حرب التّحرير ، إما عند بعض تلامذته أو في بيته بالجزائر العاصمة حين اقتحمه الجيش سنة 1957م- وهو بالمشرق العربي-، وعاث في مكتبته تخريبا ونهبا، ففقدت مخطوطاته ومعظم كتبه» [5] وهو ما يوضح درجة الحقد الصّليبي للاستِدمار الفِرنسي على جمعية العلماء ورجالاتها ومؤلفاتهم.

وبعد المشوار الحافل الطّويل الذي قضاه الشّيخ البشير الإبراهيمي في النّضال والدّعوة والإصلاح، لزم بيته واعتزل النّشاط الدّعوي غداة استقلال الجزائر سنة 1962، خاصة أنّ صحّته خانته بعيد ستة وسبعين سنة من العطاء، لتأتيه منيته، وهو على هذه الحال في: 20 ماي 1965. تاركا مكتبة زاخرة على كثرة انشغاله بالجمعية و المسار الدّعوي، نذكر منها الآتي: [6]

- عيون البصائر : تشمل المقالات التي كتبها في جريدة البصائر في سلسلتها الثانية ، و هو المؤلف الوحيد الذي طبع في حياته بعد الاستقلال، و قد ظهرت الطبعة الأولى منه سنة 1963م بالقاهرة ، ثم في الجزائر سنة 1971م.
- أسرار الضمائر في العربية.
- التسمية بالمصدر
- الصفات التي جاءت على وزن فعل
- الاطّراد والشّذوذ في اللّغة العربية
- نظم العربية في موازين كلماتها
- ما أخلت به كتب الأمثال من الأمثال السائرة
- رواية كاهنة أوراس
- شعب الإيمان: كتاب جمع فيه الفضائل والأخلاق الإسلامية.
- رسالة في الفرق بين لفظ المطرد والكثير عن ابن مالك .
- بقايا النّقايات و النّفايات في لغة العرب (كتاب جمع فيه كل ما جاء على وزن فعالة من مختار الشيء أو مرذوله.)
- بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية في الجزائر : كتاب تناول فيه بالدراسة أصول اللّهجة السّائدة في مواطن بني هلال بني عامر.
- رسالة في ترجيح أنّ الأصل في بناء الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا اثنان . [7]

- رسالة في مخارج الحروف و صفاتها بين العربية الفصيحة و العامية.[8]
- ملحمة رجزية تبلغ ستة و ثلاثين ألف بيت، من الرّجز السلس اللّزومي في كلّ بيت منه، ألفها في المنفى.[9]

وعطفا على هذه المؤلفات يمكن عدّ المقالات والخطابات والمحاضرات التي جمعها نجله - طالب الإبراهيمي- في موسوعة سمّاها آثار الشّيخ الإبراهيمي في ستة أجزاء.

3. البشير الإبراهيمي و النّهوض باللّغة العربية:

إنّ دفاع الشّيخ الإبراهيمي عن اللّغة العربية نابع عن مسرته العلمية، التي انطلقت من الجزائر إلى الزيتونة إلى الحرم والمدينة المنوّرة، وانتهاء بدمشق، التي ظهر فيها نبوغه تعليمي فتنهال عليه الطلبات بالتّدريس في مدرسة السلطاني .كما يقول: « فاستقررت بدمشقَ في حالة يرثى لها، واتصل بي إثر وصولي جماعة من أهل العلم والفضل... واتصل بي كثير من أصحاب المدارس الأهلية العربية، فقبلت التّعليم عندهم لأقوم بحاجتي وحاجة والدي وأتباعِنا، ثمّ حملني جمال (باشا) على أن أكون أستاذا للعربية في السّلطاني، وهو المدرسة الثّانوية الأولى بدمشق، وما كدت أباشر عملي فيها حتى ذهب جمال باشا ثمّ ذهب السّلطان التركي - بعده - بقليل، وأصبح التّعليم الرّسمي كلّه عربيا، فأصبحت بذلك أستاذا للآداب العربية، وتاريخ اللّغة وأطوارها وفلسفتها بالمدرسة السّلطانية الأولى، واطمأنّت بي الدّار ؛ إذ وقعت على وظيفتي الطبيعية، وتخرّجت على يدي في ظرف سنة واحدة جماعة من الصّفوف الأولى، هم اليوم في طليعة الصّفوف العاملة في حقل العروبة»[10] فهذه البراعة في التّعليم وتخريج المعلمين قد تألقت عند الشّيخ حين عودته إلى الجزائر وتأسيس جمعية العلماء والعمل على تحقيق أهدافها.

3. 1. العربية عند الشّيخ الإبراهيمي:

تعدّ أهمية اللّغة العربية عند الشّيخ ظاهرة؛ من خلال أسباب ظهورها على أرض الجزائر، وبقائها فيها، واستحالة رحيلها عنها، حيث يقول: « اللّغة العربية في القطر الجزائري ليست دخيلة، بل هي دارها، وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدَة الجذور مع الماضي، ومشتدّة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل؛ وممتدّة مع الماضي لأنّها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين؛ ترحل برحيلهم، وتقيم بإقامتهم. فلمّا أقام الإسلام بهذا الشّمال الإفريقي إقامة الأبد، وضرب بجرانه فيه، أقامت معه العربية لا تريم ولا تبرح، ما دام الإسلام مقيما إقامة لا يتزحزح»[11] . فهو يبرر علاقة الترابط القوي بين اللّغة العربية والإسلام، ليدحض مقولة دخول الإسلام بالسّيف وجبر أهل الدول المفتوحة على العربية.

كما أنّ إدراك الإمام الإبراهيمي لحقد المستدمر الفِرنسِي -الصليبي- على الدّين واللّغة العربية، جعله يتفطّن لمّا يحاك للأمة الجزائرية من مؤامرات، حتى إننا نجده يقول: «جاء الاستعمار الدّنس إلى الجزائر يحمل السّيف والصّليب، ذلك لتمكين، وهذا للتمكين، فملك الأرض، واستعبد الرقاب، وفرض الجزاء، وسخر العقول والأبدان. ولكنّه لم يكتف بذلك، بل كان استعمارا دينيا ومسيحيا، وعاريا وقف للإسلام بالمرصاد من أول يوم، وانتهك حرماته من أول يوم، فابتز أمواله الموقوفة بالقهر، وتصرّف في معابده بالتّحويل والهدم، وتحكم في الباقي منها بالاحتكار والاستبداد، وتدخّل في شعائره بالتّضييق والتّشريد، كلّ ذلك بروح مسيحية رومانية تشعّ بالحقد وتفور بالانتقام» [12] على أنّ الاستدمار الفِرنسي قد انطلق من فكرة دينية صليبية هدّامة تقوم على محاربة الدّين واللّغة، وتفتيت الشّعب الجزائري بالتّفرقة بين أفراده (عربا وبربرا).

غير أنّ الشّيخ يفسر خيبة المستدمر، وعجزه في هذه الطريق، حينما ضرب مثلا على اتقان البرابرة المسلمين للّغة العربية، واقتناعهم بها فيقول:« من قال إنّ البربر دخلوا في الإسلام طوعا فقد لزمه بأنّهم قبلوا العربية عفوا .لأنّهما شيئان متلازمان حقيقة وواقعا، لا يمكن الفصل بينهما، ومحاول الفصل بينهما كمحاول الفصل بين الفرقدين»[13]. فالشّيخ يرى أنّ محاولة الفصل بين الإسلام اللّغة العربية محاولة فاشلة؛ لأنّ جمعية العلماء قد واجهت الغطرسة الفرنسية في بغضها لكلّ ما هو عربي إسلامي، وخاصة لمّا أعلنت حربها ضد اللّغة العربية الفصحى، ومعاهدها ورموزها ورجالاتها لكي تتمكّن من قطع أوصال هذه الأمة وتجزئتها، وعزلها عن دينها الإسلام .بعزلها عن كتابها ومرشدها القرآن العربي المبين[14] إلاّ أنّ الجمعية وبرامجها وعلمائها قد صدّت هذه المخططات الفرنسية، بأن جعلت الدّين واللّغة من أولى أَولوياتها.

وكثيرا ما ترتبط كتابات الشيخ الابراهيمي بنسق واحد وهو التفكير في هموم الواقع -دراسة لفقه الواقع-، إذ هو نتاج فكر حضاري متبلور في حلول لإشكالات القهر والانحطاط الذي يسعى له المستدمر الفرنسي لتثبيته في الجزائر[15] .فنجده -باستمرار- يشدّ على يد إخوانه من أهل الجمعية في خطابه الذي يدعو فيه إلى التّشبث بالإسلام والعربية فيقول:«...ويأبي لكم الله والإسلام أن تضيعوا لغة كتاب الله ولغة الإسلام. يأبى لكم الله إلاّ أن ترجعوا إليها لا لتحيوها، بل لتحيوا بها الفضيلة الإسلامية في نفوسكم، ولتحيوا بها الحياة التي يريدها الله منكم...»[16] . وهو توضح من الشّيخ لسبب اهتمامه الكبير والمنصب على اللّغة العربية باعتبارها الحصن الواقي لهذا الدّين، حيث لا يستطيع المسلم فهمه ولا القيام بعباداته دونها.

إنّ فائدة اللّغة العربية - عند الإبراهيمي - تظهر من خلال تحوّلها من حماية الدّين إلى حماية الحياة المدنية وتطويرها، خاصة لمّا «خالطت الحواس والشّواعر، وجازت الإبانة عن الدّين

إلى الإبانة عن الدّنيا، فأصحت لغة دين ودنيا معا، وجاء دور القلم والتدوين، فدوّنت بها علوم الإسلام وآدابه وفلسفته وروحانيته، وعرف البربر على طريقها ما لم يكونوا يعرفون، وسعت إليها حكمة اليونان، تستجديها البيان، وتستعديها على الزّمان، فأوجدت وأعدّت» [17].

على أنّ هذه اللّغة الشّريفة لها القدرة على التّقدّم والازْدهار، وتقديم المدنية العربية في أبهى حللها، وأبلغ مثال على هذا التّمدن هو قدرتها على التلين في يد المعجميّين لتقديم مصطلحات جديدة تجدر أن تناطح اللّغات الأخرى -الأجنبية- في مجالات عدة: لغوية وعلمية واجتماعية واقتصادية، وطبية، وهندسية ... وغيرها.

3. 2. فعالية الإمام الإبراهيمي في مؤتمرات اللّغة العربية:

3. 2. 1. اجتماع الجمعية العامة لجمعية العلماء:

ليس من السّهل على شيخ كبير في السّن أن يثابر ويكدّ -بروح الشّباب - من أجل دينه وأمته ولغته، إلاّ لتمتّعه بطاقة وبراعة منقطعة النّظير، وذلك كلّه مع كثرة المهام والالتزامات في الجمعية كما يذكر قائلا: « كنت أقوم للجمعية بكلّ واجباتها، وأقوم للجريدة بكلّ شيء: تصحيح النماذج وأكتب الافتتاحيات بقلمي، وقد تمرّ اللّيالي ذوات العدد من غير أن أطعم النّوم، وقد أقطع الألف ميل بالسّيارة في اللّيلة الواحدة، وما من مدرسة تفتح إلاّ وأحضر افتتاحها وأخطب فيها، وما من عداوة بين قبيلتين أو فردين إلا وأحضر بنفسي وأبرم الصّلح بينهما، وأرغم الاستعمار الذي من همّه بثّ الفتن، وإغراء العداوة والبغضاء بين النّاس، فكنت معطلا لِتَدْبِيرَاتِهِ في جميع الميادين» [18].

إنّ هذه الهمة العالية من الإمام جعلته يبادر إلى القيام بأمور الجمعية من (تدريس وتأديب للنشئ)، رغم المضايقات التي تعرض لها من جنود الاحتلال الفِرنسية، والتي على كثرتها لم تثنه عَنْ اصرار في مواصلة الطريق وإدارة أمور الجمعية حتى نجده يقول : «كانت فاتحة أعمالي تنشيط حركة إنشاء المدارس، فأنشأتُ - في سنة واحدة - ثلاثا وسبعين مدرسة في مدن وقرى القطر كلّها بأموال الأمة وأيديها، واخترت لتصميمها مهندسا عربيا مسلما، فجاءت على طراز واحد لتشهد الأجيالُ القادمة أنّها نِتاج فكرة واحدة » [19]

إنّ الشّيخ يعتبر العلاقة بين الإسلام واللّغة علاقة تكاملية؛ ويؤكد على أنّ جمعية العلماء وشيوخها قد حملوا لواء حماية العربية في الجزائر حتى ذاع صيتها بين العرب: «أيّها الإخوة الكرام : كلفني الأستاذ أن أحاضر هذا الجمعَ العربِي الحاشد بكلمات في ناحية زاخرة من نواحي لغته الجليلة، وجانب عامر من جوانبها الفسيحة - وهو فضلها على العلم والمدنية، وأثرها في الأمم غير العربية - إشادة بفضل هذه اللّغة الشّريفة، في هذا الاحتفال العلمي، ووفاء ببعض حقّها علينا، وحفزا لهممكم - وأنتم أبناؤها البررة - أن تهن في خدمتها أو تقصّر في حقّها، وإعلانا

للمعنى الذي قامت جمعية العلماء بتحقيقه، وهو إحياء هذه اللّغة، وإحياء الدّين الذي ترجمت محاسنه واضطلعت بحمل أسراره»[20] . وهو إقرار من الإمام بأنّ جمعية العلماء قد تأسس للمحافظة على هذه العلاقة، التي أدّت اللّغة فيها دورا كبيرا في إظهار أسرار دين الإسلام، وهو "إعجاز القرآن الكريم".

3. 2. 2. مجمع اللّغة العربية بالقاهرة:

لقد كرّم مجمع اللّغة العربية الإمام الإبراهيمي، بأن اختاره من ضمن أعضائه للمؤتمر الثّامن والعشرين سنة 1961م، ثمّ يشرّفه بإلقاء الكلمة الافتتاحية بالنّيابة عنهم[21]، لتخرج درّة من درر الشّيخ الارتجالية التي - علّقها على جيد المؤتمر - أظهر من خلالها بلاغته وأسلوبه الأدبي البديع، وعبّر من خلالها عن انتمائه للأمة العربية. ودعا إخوانه من العرب إلى رعاية العربية والقيام بمّا يحفظها .فيقول: « إنّ هذه اللّغة العربية الشّريفة التي طرقنا خيالها المؤوب، ثمّ أسمعنا داعيها المثوب، فاجتمعنا على بساطها - اليوم - من جميع أقطار العروبة، هي الرّحم الواصلة بيننا وهي اللّحمة الجامعة لخصائصنا وآدابنا»[22] على أنّ الشّيخ يرى العروبة رحما قوية يجب التمسّك بها حتى تجتمع أطراف الأمة العربية التي يريد لها أعداؤها التّفريق، وخاصة بالاستعمارات الغربية الحديثة.

ويتابع الشّيخ الإبراهيمي في خطبته التفصيل في حقوق اللّغة العربية على منتسبيها فيقول:

« فمن بعض حقها علينا أن نبلها ببلالها، وأن نرعى حقها في كلّ منسوب إليها، كما أنّ من بعض حقها علينا أن نخف لنجدتها، كلّما مسها ضر أو حزبها أمر، وإنّ ما قمتم به اليوم من هذا الاستقبال المتهلل، واللّقاء المرحب المؤهل، بإخوانكم أعضاء المجمع الجدد، هو فنّ جميل من البّر بالعربية في أبنائها، يرضي الله الذي اصطفاها ترجمانا لوحيه، ويرضي محمّدا ﷺ ، الذي أدى بها أمانة الله، وبلّغ بها رسالته إلى خلقه، ويرضي يعرب ونزارا اللّذين سكبا بها التّغاريد العذبة الجميلة في آذان الأجيال، وتركاها كلمة باقية في الأعقاب، ويرضي أسلافكم الذين ساسوا بها العقول، وصقلوا بها الأذهان والقرائح وراضوا على بيانها الألسنة، ودوّنوا بها العلم والحكمة، وخطوا بها التّاريخ، وشادوا بها الحضارة الشّماء التي لا تُطاوَلُ، ووسعوا بها آفاق الخيال العربي، ورققوا ببيانها العواطف الكثيفة، ووحدوا بها ركب الإنسانية حينا فأطربوا.»[23] ففضل العربية على العرب والإسلام والسّلف والخلف جلي، لا يقتصر -حسب الشيخ- على عروبة عرقية ولا عنصرية، بل عروبة لغة وثقافة، جوهرها اللسان العربي[24] الذي هو ترجمانا للرسالة الخاتمة - القرآن-.

كما يوضح الشّيخ الإبراهيمي - بين ثنايا خطابه- أسباب تحمله تكليف مدير المجمع بإلقاء هذه الكلمة، واختياره لطريق جديد فيها فيقول: «ثمّ عهد إلي الأستاذ أن أكتب ما ألقيته عليكم

ليعمّ نفعه السّامعين والقارئين. وإنّ هذا الموضوع الذي سامني الأستاذ الكتابة فيه موضوع علي تاريخي لا تعْلقُ الحافظة بأسبابه كلها ولا تقوى على جمع أطرافه، وإنّما عماده البحث والتنقيب وإقامة الشّواهد وحشد النّصوص، وهذا ما لا يسعه وقت التكليف وهو يومان تتخللهما فروض المجلس الإداري وواجبات جمعية العلماء، لذلك كلّه سلكت في كتابة مسلكا أدبيا يستمد من الخيال أكثر ممّا يستمدّ من الحقيقة ويعتمد على الخطابة أكثر ممّا يعتمد على البرهان، ويرمي إلى إلهاب الحماس في نفوسكم أكثر ممّا يرمي إلى تقرير الحقائق فيها»[25] وهذا الأسلوب يتطلّب لغة راقية تنمّ عن سعة ثقافة وإلمام صاحبها بشواهد الموضوع ومستجدات واقعه الذي يعيش فيه.

إنّ جمال اللّغة العربية عند الشّيخ الإبراهيمي ظاهر من خلال أصالة أصلها حين « انشقت من أصلها السّامي في عصور متوغّلة في القدم وجرت في ألسنة هذه الأمة التي اجتمعت معها في مناسب المجد و أرومات الفخر، وشاء الله أن يكون ظهورها في تلك الجزيرة الجامعة بين صحو الجوّ ، وصفوّ الدو، والمحبوة بجمال الطبيعة ومحاسن الفطرة لتتفتّق أذهان عمار تلك الجزيرة عن روائع الحكمة مجلوة فِي معرض البيان بهذا اللّسان، وقد كانت هذه اللّغة ترجمانا صادقا لكثير من الحضارات المتعاقبة التي شادها العرب بجزيرتهم. وفي أوضاع هذه اللّغة إلى الآن من آثار تلك الحضارات بقايا، وعليها من رونقها سمات. وفي هذه اللّغة من المزايا التي يعز نظيرها في لغات البشر الاتساع في التّعبير عن الوجدانيات، والوجدان أساس الحضارات والعلوم كلّها»[26] .

وهذا ما جعل العرب أكثر شغفا بهذه اللّغة الأصيلة، مع السّعي الحثيث إلى تطويرها وتقدمها، كما يدعو الإبراهيمي إلّا ذلك قائلا: « أيّها الإخوة: لقد كنا معشر المشغوفين باللّغة العربية، الهائمين بحبّها في كلّ واد، نتتبع أعمال هذا المجتمع باهتمام، ونتلقف كلّ ما يقوله عنه، فنبحثه في مجتمعاتنا الخاصة بإنصاف، ونستعرضه فصلا فصلا ، وكلمة كلمة، وكما نعرف منه وننكر،... إنّ اللّغة العربية كالدّين يحميها من كلِّ خلف عدوله، لينفوا عنها تحريف الغالين، وزيغ المبطلين، وانتحال المؤولين، وأنتم أولئك العدول، وانفوا بجد وإخلاص عن هذه اللّغة زيغ المبطلين من هذا الجيل الذين أصبحوا يتنكّرون لهذه اللّغة ويعفرون في وجهها ... فأصبحوا يرمونها بالعقم والجمود، وعدم المسايرة لركب الحضارة، ويرتضخون لكنَة، لا هي بالعربية ولا بالصالحة لأنّ تخلف العربية، ويتمردون على البيان العربي، وعلى مناحي الشّعر العربي، وعروضه وقافيته ورويه ويلوون ألسنتهم بالسّوء في ذلك كلّه»[27] وهذا تلميح من الشّيخ إلى المهجريين - الحداثيين- الذين أرادوا هجر اللّغة العربية الصّرف وعمودها الشّعري؛ باستحداث -استراد- شعر التّفعيلة، الذي حاول التّحرر من قيود القافية وعروضها، وَتطاول ذلك إلى المساس بالنّحو العربي وكسر قواعده.

ويحذر الإبراهيمي المجمع من أطماع الاحتلال الفِرنسي ومجمعه فِي نشر لغته في الجزائر وباقي الأمة العربية فيقول: «أيّها الإخوة: أعيذكم بشرف العروبة أن تكونوا كأعضاء المجمع الفرنسي دعوا بـ(الخالدين)، فأوهمهم هذا الوصف أنّهم خالدون حقا، فركنوا إلى الكسل، وأصبحوا سخرية السّاخر» [28] بسبب الجزائريين الذين دحضوا هذا المستدمر، وأماتوا لغته من عقولهم وواقعهم المعيش.

ثمّ يقدّم لنا الشّيخ خاتمة ماتعة في أدبها وأسلوبها البديع فيقول:« ثمّ نتقدّم بالثناء العاطر على إخواننا السّابقين الأولين من أعضاء المجمع على ما أنفقوا في سبيله من وقت وجهد، وأفاضوا عليه من معنويات راسخة، ونفضوا عليه من ألوان ثابتة جميلة، على ما وسّعوا من آفاقه وميادينه، وعلى ما سعوا فيه من إلحاق إخوان لهم من أقطار العروبة تكثرا بهم، والعزة للكاثر، وتعاونا على هذا الأم البرة، والتعاون على البرّ(بِفَتْحِ البَاءِ) كالتعاون على البّر(بِكَسْرِ البَاءِ) كلاهما منقبة وقربة وحسن أحدوثة، وقالة خير فاشية» [29] فهو يعتز باللّغة العربية وبالانتماء إلى قوميتها، كما لا ينسى تحية المقاومين الجزائريين الذين طردوا فرنسا، واستقلوا بأرضهم عنها حيث يقول: « أنا سعيد بأن أتكلّم في هذا اليوم، وفي هذا المحفل، ووطني الجزائر مقبل على استقلاله الذي اشتراه بالثّمن الغالي، وستلتحق الجزائر بالركب العربي عن قريب، وسيخرج من أجيال المغرب العربي عمار لهذا المجمع، وحماة لهذه اللّغة الشّريفة» [30] : لأنّ الإنسان الشّريف لا ينسى هموم وطنه وأمته، حتى نراه يحمل همومهما معه في حلّه وترحاله، مبتغيا لهما الرّفعة والسؤدد.

3 .2. 3. رائعة من روائع عيون البصائر:

وهي التي اهتم فيها الشّيخ الإبراهيمي بالتّعليم العربي، خاصة حينما دعا إلى الاعتناء باللّغة العربية قبل اللّغات الأخرى؛ لارتباطها بالإسلام فيقول:« اللّغة العربية هي لغة الإسلام الرّسمية، ومن ثمّ، فهي لغة المسلمين الدينية الرّسمية، وهذه اللّغة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان، كلّ منهما يقتضي وجوب تعلّمها، وكيف إذا اجتمعا: حقّ من حيث إنّها لغة دين الأمة، بحكم أنّ الأمة مسلمة، وحقّ من حيث إنّها لغة جنسها؛ وبحكم أنّ الأمة عربية الجنس، ففي المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معا، ومن هنا نشأ ما نراه من حرص متأصل في هذه الأمة على تعليم العربية، وما نشهده من مطالبة اجتماعية بحرية تعليمها، وما نشاهده من قلق واضطراب في أوسط الأمة لموقف الحكومة المخجل من اللّغة العربية، وما نراه من سخط عميق على القرارات والقوانين التي تعرقل تعليمها، ذلك كلّه لأنّها مفتاح الدّين أو جزء من الدّين.» [31]

فقد انبرت جمعية العلماء إلى التّشجيع على تعليمها ومجابهة كلّ تلك القوانين التي تحاول هدمها والإضرار بتقدمها بين النّاس « وجمعية العلماء، التِي تعّد أشرف أعمالها تعليم العربية،

قد أقامت خمسة عشر عاما تطالب - في غير ملل - بحرية التعليم العربي الذي هو أساس التّعليم الدّيني، وما زالت تصارع العوارض الحائلة، وهي عوارض القرارات الإدارية، والقوانين الموضوعة لخنق العربية وقتها، وما زالت الجمعية تنكر تلك القرارات وتقول عنها في صراحة: إنّها قرارات جائرة ...»[32] لأنّها جمعية ترى الشّرف في الدّفاع عن هذه اللّغة القرآنية، حتى صيّرتها من أولوياتها، كما نرى الشّيخ الإبراهيمي يطالب الحكومة بتعميم تعليمها حين يختم مقاله قائلا: « وخلاصة رأي جمعية العلماء في التّعليم العربي: إنّه أصبح ضرورة من ضرورات الأمة، وأنّ القرارات المتعلّقة به كلّها ترمي إلى التّضييق عليه وقتله؛ وأن تنفيذها موكّل إلى عمال يتولّونه بالغرض والهوى »[33] إذ إنّ الإبراهيمي قد خلّف رجالا أحرارا يهتمون بإحياء اللّغة العربية التي يتعلّق بها نصر الدّين وحفظ الملة ، فتحيا الأمة الجزائرية مرفوعة الرأس بعدما أراد لها المستدمر الفرنسي التّفسُخ والتّمسخ.

4 خاتمة:

لقد اختار الشّيخ الإبراهيمي تمثيل أعلى درجة من الوعي، بالمحافظة على مقومات الأمة الجزائرية، فعمد إلى إعطاء المدرسة أهمّيتها في إحياء هذا الحق، ومواجهة كلّ المخططات الفرنسية الاستدماريةِ، التِي تهدف إلى تغييب الإسلام ولغته الشّريفة، باستحداث المدارس القرآنية ثمّ تطوير التّعليم من المعهدي -الكتّابي- إلى الابتدائي ثمّ الثّانوي، مع التّركيز على التّعليم العربي واسترجاع العقيدة الإسلامية الصّحيحة بعد ما أصابها منْ تحريف وتزييف، لتصبح اللّغة العربية أكثر انتشارا فيِ بلاد الجزائر، من تلمسان غربا إلى عنابة شرقا .

إنّ الجهود الإبراهيمية في تطوير اللّغة العربية في الجزائر انبثقت من خلال كتاباته الإصلاحية المتأدبة، التي أظهر من خلالها هذا العلم براعة لغوية وأسلوبية بديعة، حتى أغرق بها مقالاته وخطبه التي ما فتئت مغادرة هذا النّسق الجمالي الذي يحاكي نسق القدامى ، وهو ما دفع الأستاذ عبد المالك مرتاض إلى القول عن أسلوبه: « يسمو أدبه إلى ذروة الفنّ الأدبي، ونحن نحسب أنَ هذه الفترة لم تعرف كاتبا ينحو منحى أبي عثمان الجاحظ في كتابته دون أن يبدو عليه تكلّف أو ضعف أو جدب في القريحة أو ضحالة في المفردات اللّغوية كمحمّد البشير الإبراهيمي»[34]

الهوامش:

1- مهداوي محمد ، البشير الابراهيمي نضاله وأدبه، دار الفكر، بيروت- لبنان-ط1، 1988،ص:33.

2- عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد في كتاب عبد الرّحمان الكواكبي، ا لأعمال الكاملة، تح: محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنّشر،1975، ص:208.

3- ينظر: شهيرة بوخنوف، البعد التعليمي في كتاب (عيون البصائر) للعلامة محمد البشير الإبراهيمي، جريدة البصائر، 04-07-2017، الإطلاع: 02-11-2020/، https://elbassair.org/465/

4 - أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1 ،1997 ، ج5، ص:288.

5 - المرجع السابق، ج1، ص:06.

6 - المرجع نفسه، ج5،ص: 288، 289، 290.

7- انظر: محمد البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة، دار الأمة، الجزائر، 1993، ص: 231

8- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثّقافي، دار الغرب الاسلامي بيروت -لبنان-،ط1، 1998،ج 8،ص:47

- محمد رجب البيومي، النهضة الاسلامية في سير أعلامها المعاصرين، دار القلم دمشق -سوريا- ،ط1، 1995،ص: 2549.

10- المرجع السابق، ج 5 ص 166

11 - المرجع نفسه، ج3، ص:206.

12 مجلة الفيصل، العدد: 335، ص:40.

13- مرجع سابق، ج3، ص:206

14- ينظر: أحمد بن نعمان، اللّغة العربية أسئلة التطوّر الذّاتي والمستقبل، مركز دارسات الوحدة العربيّة، لبنان، 2005 ، ص: 59.

15- ينظر: علي حميداتو، ومحمد عطا الله، دور محمد الإبراهيمي في الدفاع عن اللّغة العربية في الجزائر من خلال مؤلفاته –بين المحافظة والاحياء- مجلة صوتيات ،مجلد:20، العدد:2018/01،ص:265.

16 - آثار الإبراهيمي، ج1، ص:135

17 - المرجع السابق، ج3، ص:206

18 - المرجع نفسه، ج5، ص285

19 - سويدان، حسن السّماحي، من سير الخالدين بأقلامهم(أحمد شوقي ،البشير الإبراهيمي، محب الدين الخطيب)دار القادري، -دمشق –سوريا-ط1998،1،ص:67.

20 - آثار الإبراهيمي، ج1، ص:373.

21 - مهدي علام وآخرون، مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما، الهيئة العامة للشئون المطابع الأميرية، القاهرة-مصر-، ط2003، ص. 156.

22 - آثار الإبراهيمي، ج5، ص:292.

23- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

24- ينظر: عبد الرحمان بن بوزيان، جهود الشّيخ محمد البشير الابراهيمي في احياء تدريس اللغة العربية بتلمسان،-1932. 1947-،مجلة اللغة العربية، مجلد:22، العدد:2020/50، ص:452.

25 - - آثار الإبراهيمي،ج5،ص:292.

26 - المرجع نفسه، ج1، ص:374.

27 - المرجع نفسه، ج5، ص: 295.294.

28 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها

29 - م. ن، ص. ن

30 - م. ن، ص. ن

31 - آثار الإبراهيمي، ج3، ص:48.

32 - المرجع نفسه، ج3، ص:49

33 - المرجع نفسه، ج3، ص:50.

34 - عبد المالك مرتاض، محمد البشير الإبراهيمي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الرغاية- الجزائر- ، د ط، 1984، ص :73.